من صرحنا الاجتماعى

للأستاذ محمد عبد الرحيم

كان الاتجاه فى القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر متأثرا جد التأثر بالمبادئ الفردية. فكان الفرد متروكا لحظه وما يتخذ من وسائل فى حياته ومعاشه بحيث لا تتدخل الحكومات بين الأفراد لغير حماية الأمن والنظام وجباية المكوس والضرائب بأنواعها . فنشأ عن ذلك التهام القوى للضعيف وبلغ التطفل الاجتماعى فى كل الأمم المتحضرة أقصى دركات التأخر والانحطاط ، عاشت الملايين من الناس فى حمأة الرذيلة والفاقة ، لا يتعلمون ولا يعنى بأمرهم صحيا وخلقيا . واستوطنت الأمراض والعلل الهدامة فى جسم المجتمع المريض ، ولم تكن لأقوال الكتاب قيمة سوى تحرك بعض المحسنين بين آن وآخر لإنشاء مؤسسات للاحسان ودور للعجزة ولكنها كانت من القلة بحيث تشبه الذرة النائمة فى محيط الرمال . بيد أن ضمير الكتاب ظل يصور المآسى الاجتماعية الملتفة به والتى تخيم على الشعوب والأفراد . كما انبرى رجال الاجتماع فى مختلف الأمم يكتبون ويؤلفون فى المباحث الاجتماعية ومعضلات الاجتماع العلمى راجين أن تتبدل أحوال البشرية الى درجة ارتقائية تقضى على الفوارق البارزة وتهيىء للافراد والجماعات حياة فيها السعادة والتجانس .

ولسنا بصدد التأريخ لهذه الحركات ، ولا بصدد المقارنة بين الاتجاهات التى تطور إليها العالم ونشأت عنها المبادئ الاقتصادية والتى لا تزال فى صراع الى يومنا هذا . على أن الذى يجب أن نقرره هنا أن فساد النظم الاجتماعية لم يقتصر على أمة دون أمة ولا شعب دون شعب وان أحوال العالم كانت فى كثير من الأحايين تتأثر بتطورات غير منظورة . فالحروب التى خاضتها البشرية كان لها كثير من الفضل فى التقريب بين الطبقات المختلفة فى الشعب الواحد ونحو الفوارق الى حد ما ، وتحقيق العدالة الاجتماعية بصورة من الصور وإن لم تأخذ مداها الواسع حتى يومنا هذا . فمثلا تقدم "شاتون كرفورد" بخطابه فى مجلس العموم فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٤١ وصور الكارثة التى حلت بقرية " روتشديل " بانجلترا عقب الانقلاب الصناعى الذى شل حركة المصانع اليدوية وقضى عليها فقال :

يوجد فى قرية "روتشديل" ١٦٠ شخصا يعيشون على ٢٥ مليما فى الأسبوع .

» ٢٠٠ شخص » ٤٠ » »

، ٥٠٨ أشخاص يعيشون على ٥٠ مليما فى الأسبوع

، ٨٥٥ شخصا « ٧٥ « «

، ١٥٠٠ شخص « ٩٠ « «

وخمسة أسداس هؤلاء الأشخاص لا يجدون غطاء يتدثرون به وتحدثت الصحف السيارة مصورة تلك الآلام التى يعانيها هل هذه القرية ومنافاة الضرائب المفروضة عليها للعدالة الاجتماعية . فما كان من الحكومة إلا أن أقرت مشروع الضرائب بنسبة الدخل .

وأتت الحرب العظمى الماضية بالاختراعات الحديثة والصناعات الكبرى فزادت الروابط بين الشعوب وربطت العالم كله بحلقة من الاتصال بحيث أصبحت التأثرات التى تحدث فى أمة تجد مجاوبة من الأمم الأخرى وكان أن آمن الناس والحكومات بأن المال وحده لا يكفى لبناية الشعوب وتأسيس عظمة الأمم، ووضعت الآراء التى كانت خيالية فى الماضى، مبادئ أساسية للتنفيذ فى الاتجاهات الاجتماعية وقست حضارات الأمم بمقياس رقى أفرادها، وانبعاثهم نحو تحقيق المساواة والعدالة، لا من حيث الملكية فحسب، بل من حيث الصحة وتقوية ذاتية الفرد وشعوره بكرامته، وتفتق الملكات الذهنية فيه وبعث مواهبه التى قتلها الجهل والفقر والمرض . وحاربت الأمم هذا الثالوث المخيف، رغبة منها فى الخير الفردى، والخير العام .

وأتت الحرب الحالية فأعلت من شأن الديمقراطية وحاول قادتها أن يقرروا فى الأذهان دعائمها الصحيحة لمختلف الشعوب وأنها تقوم على سيادة وطنية ثابتة ومساواة أمام القانون وفى الحقوق ، وحرية اجتماعية ومدنية وسياسية . ولم يزد شعور التعاون بين الأمم كلها بمثل ما حدث فى هذه الحرب الأخيرة .

ولم تكن مصر بمعزل عن هذه الاتجاهات كلها، وهى بحكم مركزها الجغرافى فى مفترق الطرق بين الشرق والغرب الى مكانها الملحوظ بين أمام الشرق وهيمنتها على جانب خطير من طرق المواصلات، وقد شهدت كل النشاط السياسى والحربى فى الحرب الأخيرة، هذا الى تاريخها القديم الذى يخلق فى أبنائها العزة والشعور بالكرامة ويجعلهم يحاولون جاهدين أن يبعثوه بين الأمم كريما وضاء . وما كان لمصر وقد أرضعت العالم مجدها، ودونت فى التاريخ صفحات ذهبية مشرقة أن تتأخر حيث يجب أن تتقدم وتسبق . وما قيام وزارة الشؤون الاجتماعية إلا مجاوبة لهذه الآمال الكريمة .

والباحث الاجتماعى لا يغفل تطورات العالم من حسابه ولا القرون الطويلة التى مرت بها هـذه البلاد ولا العوامل التى أضعفت من شأن الفردية فيها . ولا ينتظر أن يغمض عينيه و يفتحهما كى يرى هذه البلاد روضة فيفانة ، ترف بالغنى ، وتشيع بالصحة ، وتموج بالعلم والجاه ، لأنه يجد أمامه المشاكل الاجتماعية أكثر من أن تعد وكلما حلت عقدة تطلع الى غيرها رجاء أن يستشرف على النهاية و يستبشر بطلوع فجر يؤمن الناس فيه بأن الخير لا يأتيهم من خارج نفوسهم ، بل من حوافزهم الباطنة التى تدعوهم الى العمل ومسايرة الإصلاح .

وما من شك فى أنه شرعت قوانين لها خطورتها ومقامها الرفيع فى قائمة الاصلاح الاجتماعى وآخرها مشروع مكافحة الأمية الذى كان امتهاجنا به عظيما ، لا لأنه ولد كاملا ولكن لأن كل تشريع يحاول تثبيت شخصية الفرد ينقذنا من الوصوليين والسماسرة و يجعلنا نتطلع بقلوب مستبشرة ، وفى كثير من الحفاوة الى سيادة الأمة ، سيادة صحيحه يجعلها جديرة حقا بالحياة الديمقراطية السليمة و يقضى على الآفات التى تعوق صيحات المخلصين من أبنائها .

وهذا معالى وزير المالية يقول إنه يوجد بين المصريين ثلاثة عشر مليونا لا يملكون شيئا من الأراضى الزراعية . وهو قول على ما فيه من مرارة ، يوضح لنا مقدار تباين الطبقات فى مصر ، ويجعل الباحث المنصف يدرك مقدار الصعوبات التى تعترض المصلحين وتجعل الوعى الاجتماعى يستيقظ فى خمول وتراخ ، ولكنه لا يحمل على اليأس ولا يبعث على التشاؤم والنوم . فقد تقدمت خطبة العرش بمعالجة هذه الحال وغيرها لتحقيق العدالة الاجتماعية ، أو رفع المستوى الاجتماعى بحيث يتحقق لكل فرد حياة انسانية . وقد قامت كل وزارة من الوزارات بالمساهمة من طريقتها فى رفع هذا المستوى واتجهت إلى استغلال جميع الموارد لتحقيق الصالح العام .

وهنا يجدر بنا أن نسأل . هل يجب أن يظل المثقفون بمعزل عن هذه الاتجاهات وأن نكتفى بالقول نرسله بين وقت وآخر وأن يبقى صفوة القادرين فينا بعيدين عن مناصرة الحكومة فى مشاريعها القومية التى تنهض بها وتدعو اليها . ان ظل الأمر هكذا فما أبعد بفجر الإصلاح منا . لقد علمتنا الحرب ألوانا من الحياة ، أخذ كل منا نفسه وأهله بها . ومن الكرامة الوطنية أن ننهض فى السلم كراما نعلن الحرب على أحوالنا الاجتماعية بحيث يكون سلاحنا فيها التعقل والطموح لنرفع من شأن إخواننا فى الوطن وشركائنا فى نعمائه و بأسائه ونأخذ بيدهم إلى حياتنا التى نعيش فيها ونؤدى لهم ضريبة المواهب وحق أخوة الوطن الكريم .

لقد ناديت فى الصحف السيارة بوجوب تجنيد المتعلمين على اختلاف مشاربهم وتباين ثقافتهم تجنيدا اجباريا الى مسقط رءوسهم حيث يساهمون وقت فراغهم فى رفع مستوى

أهلهم وعشيرتهم من حياة الجهل الى نور العلم. وأوضحت أن مكافحة أمية القراءة والكتابة وسيلة لا غاية. ولمكافحة الأمية العقلية يجب أن يحاضر الفرويون ومن فى حكمهم بواسطة المتعلمين من أبنائهم المجندين . محاضرات منوعة فى كل المباحث الثقافية التى تخصصوا فيها، توفروا عليها . وان قرية تظفر بثلاثين محاضرة فى عام واحد وفى غير باب واحد لكفيلة بأن تجعلنا أمام وعى انسانى جديد وعقليات جديدة وحياة ناضجة رشيدة وأن هذه الدعوة يحسن أن تجد توجيها ورعاية فعلى المتعلمين أن يدفعوا ضريبة المواهب كما يدفع الغنى ضريبة الزكاة ، والمثول ضريبة الأراضى وأن نؤمن جميعا بأننا فى اتجاهنا هذا نكون قد عملنا بقول النبى صلى الله عليه وسلم حينما رجع من إحدى المغازى فقال "رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر. جهاد النفس" .

فخلق الوعى الاجتماعى وتثقيف الشعب الذى لم تسعده الظروف بالجلوس منذ الحداثة الى المؤدبين فى دور العلم يجب ألا تقوم به الحكومة وحدها لأنها مهما عملت سيكون عملها بطيئا محدودا لا يوائم النهضة ولا يفى بحاجات العصر وكرامة الأمة ولا الى ما تصبو اليه من وضع كريم سريع بين سائر الشعوب .

ومتى شهدت القرى سنة واحدة هذه الحركة استطعنا ان نطلب الى أفراد كل قرية أن ينهضوا من تلقاء نفوسهم باختيار قطعة أرض مهملة تجاور قريتهم و باشتراكهم جميعا يمكن أن يقام عليها مضخة للمياه وصنابير للشرب ومذياع للاستماع ومتنزه صغير . وفى هذه الحملات الكريمة التى أرجو أن تتم يمكن أيضا أن يغمر الجميع نوع من التعاون فتنهض كل جماعة فى محيطها بتأسيس الجمعيات التعاونية التى تبعث العزة فى النفوس وتعمل اصالح الجميع .

ورب سائل يقول هبك أحكمت هذه الخطة وأنشأت الوعى الاجتماعى وكافحت الأمية فلا يزال من التالوث الفقر والمرض وكيف تتكون الجمعيات التعاونية من الأيدى الفارغة والبطون الجائعة . ولقد أجاب على هذا السؤال قبلنا إثنا عشر عاملا فى حى متواضع بحارة بقرية روتشديل بانجلترا عام ١٨٤١ فلقد قال "ملز أشورث "Miles Ashuorth لرفاقه إن صلاح أمرنا لا يكون إلا باعتناق تعاليم "روبرت أوين" وما سمعناه عن تعاليم "وليم كنج" وتجربته فى بريتون عام ١٨٢٧ وما تلاها . تلك النظم والتعاليم التى إذا أخذنا بها أنفسنا استعضنا عما عجزنا عن الحصول عليه من زيادة فى أجورنا بزيادة فى قوة الشراء التى تحصل عليها فإذا اتفقنا على أن نكون جمعية تعاونية لنا على نمط جمعية "بريتون" متنكبين العوامل التى أثرت فى نموها وازدهارها نكون قد سايرنا الحل المعقول فى أمرنا ونظرنا الحياة من كوة أوسع من التى نحن فيها وأنا واثق من أن الحصول على المال فى الحالة التى نحن فيها ليس بالأمر الهين ولكن العزيمة وحدها تذلل كل شئ . وبعد أن أمن الأعضاء على كلامه أملى

على جيمس دالى James Daly كاتب الجلسة — قرار الجمعية ثم قال "يجب أن نقوم فورا بجمع المال اللازم لمحل تجارى. أولا ولا ينبغى ذلك إلا بمراعاة الاقتصاد لتوفير المال اللازم لقيام الجمعية وقد جعلنا السهم فى رأس المال جنيها واحدا ولكل عضو من الأعضاء أن يكتتب فى سهم واحد يدفع منه ثمانية مليمات — بنسين — وقت الاكتتاب ويدفع الباقى على أقساط أسبوعية كل قسط منها ثمانية مليمات كذلك. وعلينا أن ندعو لعملنا هذا بين طوائفنا رجاء أن يصل الى عدد أكبر مما نحن عليه الآن .

وفى يوم الأحد الحادى عشر من أغسطس عام ١٨٤٤ تم انتخاب اثنين وثلاثين عضوا للقيام بأعباء الجمعية التى تأسست فى حارة تود بقرية روتشديل بانجلترا وافتتحت محلا تجاريا لها بايجار سنوى قدره عشرة جنيهات و برأس مال قدره خمسة عشر جنيها وبه أصناف محدودة من البقالة والدقيق والزبدة والسكر ويفتح فى ليالى السبت والاثنين من كل أسبوع ويظل مغلقا فيما عداهما وقد استقبل من غير أعضائه بفكاهات الناس وتندرهم وما دروا أن أبطال روتشديل قد وضعوا الدعامة الأولى لأكبر المؤسسات العالمية بحيث أصبحت قبلة البلدان ولها فروع فى العالم كله .

ونحن إذا استطعنا ان نزكى روح التعاون ونقرب معانيه الحقيقية الى أفراد الشعب وتبسط وسائله نكون قد قمنا بخير كثير بجانب ما تقوم به الحكومة من توزيع بعض الأراضى الزراعية واستصلاح ما لديها من أراض أخرى لتوزيعها .

على أنه يبقى واجب آخر لا يقل أهمية عن هذين يقع على المتخمين من المولين والملاك للأراضى الزراعية ذلك هو واجب الشعور بالرحمة مع المستأجرين والأجراء عندهم والمبادرة الى التخلص مما يزيد على حاجتهم من الأرض الجيدة بأثمان مقبولة للطامحين من ذوى الملكيات الصغيرة أو لمن لا يملكون أصلا واستثمار أموالهم فى المشروعات التجارية والصناعية حتى يساهموا بنصيبهم الوطنى وجهادهم القومى ولكى يفسحوا أبواب العمل أمام المتبطين ومن فى حكمهم ممن لا يكسبون قوتهم إلا بشق الأنفس وبذل الحياة .

(وزارة المعارف) محمد عبد الرحيم حسين